الفصل التاسع
القراءات وتفسير القرآن

ف١٢٢-القراءات: أبو عمرٍو الدَّاني وابن فِيرُّه الشاطبي.

ف١٢٣-التفسير: بقي بن مخلد.

obeikandl.com

obeikandl.com

ف١٢٢-القراءات أبو عمرو الدَّاني، وابن فبره الشاطبي

عُني المسلمون بدراسة القواعد المحكمة لقراءة القرآن، وما ينبغي لها من مدٍّ وغَنٍّ ووَقْفٍ وما إلى ذلك. واهتموا بتأليف الكتب في تلك الفروع؛ لأن مراعاة الأصول المقررة في قراءة الكتاب تؤدي إلى تقويم النطق بالآي الكريم على صورة ثابتة، وتوحيد التلاوة، وفي خلال القرون الهجرية الأولى بلغ عدد الأساليب الرئيسية لتلاوة القرآن سبعة: هي المعروفة بالقراءات السبع لقال ابن خلدون: «القرآن هو كلام الله المنزَّل على نبيه، المكتوب بين دفتي المصحف، وهو متواتر بين الأمة.

إلا أنَّ الصحابة رووه عن رسول الله ﷺ على طرق مختلفة في بعض ألفاظه وكيفية الحروف في أدائها، وتُنوقل ذلك واشتهر إلى أن استقرت منها سبع طرق معينة، تواتر نقلها أيضًا بأدائها واختصت بالانتساب إلى من اشتهر بروايتها من الجمِّ الغفير، فصارت هذه القراءات السبع أصولاً للقراءة. وربَّما زيد بعد ذلك قراءات أُخر لُحقت بالسبع، إلا أنها عند أئمة القراءة لا تقوى قوتها في النقل...»[*].

وكان إتقانها يتطلب درسًا طويلاً. وكان لا بد لقراءة القرآن في المساجد من التمكُّن من ذلك الفن. وقد كان أهل الأندلس يتبعون القراءات المشرقية «إلى أن مَلَكَ بشرق الأندلس مُجاهد- من موالي العامريين - وكان معتنيًا بهذا الفن من بين فنون القرآن، لما أخذه به مولاه المنصور بن أبي عامر واجتهد في تعليمه وعرضه على من كان من أئمة القرَّاء بحضرته، فكان سهمه في هذا وافرًا. واختص مجاهد بعد ذلك بإمارة دانية والجزائر الشرقية فنفقت بها سوق القراءة»

(*) ابن خلدون: المقدمة، المطبعة الأزهرية ١٣١١، ص٢٥٩. والمؤلِّف يتابع في هذا الباب مقدمة ابن خلدون، فرأيت أن آتي بنص كلامه.

- لما كان هو من أئمتها، وبما كان له من العناية بسائر العلوم عمومًا، وبالقراءات خصوصًا - فظهر لعهده أبو عمرو [عثمان بن سعيد بن عثمان] الدَّاني [٣٧٠/٩٨١-١٠٥٣/٤٤٤] وبلغ الغاية فيها، ووقفت عليه معرفتها وانتهت إلَيه رواية أسانيدها، وتعددت تآليفه فيها، وعوَّل الناس عليها وعدلوا عن غيرها، واعتمدوا من بينها كتاب «التيسير» له[*] (١)

أما أبو القاسم محمد بن فيره الرعيني الشاطبي (١١٤٤/٥٣٨-١١٩٤/٥٩٠)، فقد نظَّم القواعد الواردة في كتاب «التيسير» واختصرها في قصيدته المعروفة « بحر الأماني ووجه التهاني» - والتي تسمى كذلك «الشاطبية» - فسهَّل على الناس استذكارها وحفظها، [«وعدتها ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتًا. ولقدِ أبدع فيها كل الإبداع، وهي عمدة قراء هذا الزمان - زمان ابن خلكان - في نقلهم، فقل من يشتغل بالقراءات إلا ويقدِّم حفظها ومعرفتها، وهي مشتملة على رموز عجيبة وإشارات خفية لطيفة، وما أظنه سبق إلى أسلوبها. وقد رُويَ عنه أنه كان يقول: «لا يقرأ أحد قصيدتي هذه إلا وينفعه الله - عَزَّ وَجَلَّ - بها؛ لأني نظمتها لله تعالى مخلصًا في ذلك». ونظم قصيدة دالية في خمسمائة بيتٍ من حفظها أحاط علمًا بكتاب «التمهيد» لابن عبد البر. وكان عالمًا بكتاب الله تعالى قراءة وتفسيرًا، وبحديث رسول الله ﷺ مبرزًا فيه... »][*].

وإلى جانب هذه المدرسة نبغ في القراءات أبو محمد مكي بن أبي طالب القرطبي (المُقْري)، واسمه حمُّوش بن محمد بن مختار القيسي (٣٥٥/٩٦٥-٤٣٧/١٠٤٥). [وأصله من القيروان، سكن قرطبة. «قال صاحبه أبو عمر أحمد بن مهدي

(*) ابن خلدون: المقدمة، طبعة بولاق، ص٣٦٥.

(*) ابن خلكان: الوفيات، طبعة محيي الدين، رقم ٥١٠.

المُقري: كان - نفعه الله - من أهل التبحر في علوم القرآن والعربية. حسن الفهم والخلق، جيد الدين والعقل، كثير التأليف في علوم القرآن محسنًا لذلك، مجودًا للقراءات السبع عالمًا بمعانيها»[*]؛ وشريح بن محمد بن شريح الرعيني المُقْري (٤٥٠ /١٠٥٩-١١٥٢/٥٤٦) من أهل إشبيلية، وقد سمع في صباه من محمد بن حزم خطيب مسجد إشبيلية الجامع على أيامه. وكان شُريح «من جلة المقرئين، معدودًا في الأدباء والمحدِّثين، خطيبًا بليغًا حافظًا محسنًا فاضلاً، حسن الخط، واسع الخلق سمع الناس منه كثيرًا، ورحلوا إليه، واستقضى ببلد، ثم صرف عن القضاء»[*][1].

ف١٢٣ - تفسير القرآن بقي بن مخلد

واهتم المسلمون كذلك بتفسير القرآن و فهم معانيه، وشرح كلمه من النّاحية اللفظية اللغوية، وناحية المعاني والأفكار. ومعظم اعتمادهم في التفسير على الحديث النبوي الشريف قولاً وعملاً، وهدفهم التوفيق بينه وبين آي الكتاب المنزل.

ومن أكبر المفسرين الأندلسيين الذين اعتمد الناس عليهم بقى بن مخلد (٢٠١/ ٨١٧-٨٨٦/٢٧٢)، وكان رجلاً صالحًا متقلّلاً من الدنيا، متواضعًا.

من أهل قرطبة، رحل إلى المشرق في طلب العلم، وسمع عددًا عظيمًا من الشيوخ في مكة والمدينة ومصر ودمشق وبغداد وغيرها من مراكز العلم. ولم يقتصر على السماع من المالكيين، بل سمع من شافعيين، وسمع من أحمد بن حنبل (وكان من كبار أصحابه) وآخرين. ولم يتبع مذهبًا بعينه، وإنما كان يصدر آراءه في المسائل بحسب ما يتراءى له، معتمدًا على آي الكتاب. ولم يرضَ فقهاء الأندلس عن مذهبه

(*) ابن بشكوال : الصلة رقم ١٢٧٦

(*) ابن بشكوال :الصلة رقم ٥٣١

هذا، إذ كانوا يتعصَّبون لرأي مالك، وأنكروا عليه هذا الاستقلال الذي كان يسير عليه، وبدءوا يتكلمون في حقه ويستثيرون الأمير محمد بن عبد الرحمن عليه، محتجين بأنه يقرأ على الناس مسند ابن أبي شيْبة الذي لا يعرض وجهة نظر المدنيين وحدها، بل يعرض آراء غيرهم كذلك. وكان ألد خصومه ابن مَرْتَنِيل شيخ المالكيين في عصره، وأصبغ بن حليل -وكان ينفر من كل تجديد - ومحمد بن حارث ومضوا يؤلِّبون عليه الناس، وتكلموا في إصدار فتوى بإباحة دمه، فعوَّل بقي على الرحيل من الأندلس جملة، «فاستحضره الأمير محمد وإياهم وتصفَّح الكتاب (مسند أبي شيبة) جزءًا جزءًا؛ حتى أتى على آخره، ثم قال لخازن كتبه: «هذا الكتاب لا تستغني خزانتنا عنه، فانظر في نسخه لنا؛ ثم قَالَ لبقي: «انشر علمك وارو ما عندك»، ونهاهم أن يتعرَّضوا له»(*).

وقد وضع بقي تفسيرًا للقرآن بلغ من كماله أن ابن حزم قَالَ فيه: «فمن مصنفات أبي عبد الرحمن بقي بن مخلد كتابه في تفسير القرآن، فهو الكتاب الذي أقطع قطعًا، لا أستثني فيه، أنه لم يؤلَّف في الإسلام مثلُه، ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره، ومنها في الحديث مصنفه الكبير الذي رتَّبه على أسماء الصحابة - رضي الله عنهم -: فروى فيه على ألف وثلاثمائة صاحب، ثم رتَّب حديث كل صاحب على أسماء الفقه وأبواب الأحكام؛ فهو مصنف ومسند. وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله، مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله فيه في الحديث وجودة شيوخه، فإنه روى عن مائتي رجل وأربعمائة رجل، ليس فيهم إلا عشرة ضعفاء، وسائرهم أعلام مشاهير.

ومنها مصنَّفه في فتاوى الصحابة والتابعين ومن دونهم»، الذي أربى فيه على

(*) ابن حزم (برواية المقري): نفح الطيب، طبعة محيي الدين، جـ٢، ص٣٧٣.

مصنف أبي بكر بن أبي شيبة ومصنف عبد الرازق بن همام ومصنف سعيد بن منصور وغيرها، وانتظم علمًا كثيرًا لم يقع في شيء من هذا (يريد: هذه المصنفات)، فصارت تواليف هذا الإمام الفاضل قواعد للإسلام لا نظير لها. وكان متخيِّرًا لا يقلد أحدًا، وكان ذا خاصة من أحمد بن حنبل، وجاريًا في مضمار أبي عبد الله البخاري وأبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري وأبي عبد الرحمن النسائي، رحمة الله عليهم»[*٣٨].

وكان بقي في حياته الخاصة مثلاً من مثال التواضع والفضل (حتى لتروي الكتب كرامات جرت على يديه)، ولم يقبل في حياته ولاية أو منصبًا[٤].

ومن مفسري الأندلس النابهين ابن مَجَامِس، عثمان بن محمد المتوفى سنة ٣٥٦/ ٩٦٦، لوكان حافظًا للتفسير عالمًا بأخبار الدهور وله في ذلك كتاب»[*].

ومكي بن أبي طالب الذي أشرنا إليه، وابن عطية، عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام المحاربي، أبو محمد (٤٨١/١٠٨٨-٥٤٢/١١٤٦ أو ٤٧) من أهل غرناطة، وقد تولى قضاء المرية وغرناطة وأدرك شهرة عظيمة بتفسيره الذي اختصر فيه كل ما كُتب قبله من التفاسير، وراج رواجًا عظيمًا في المغرب والأندلس: لوقد قال في حقه الضبي: «حافظ محدث مشهور، أديب نحوي شاعر بليغ، ألّف في التفسير كتابًا ضخمًا أربى فيه على كل متقدم، أخبرني به عنه شيخي القاضي أبو

(*) رواه ابن بشكوال في «الصلة» رقم ٢٧٥. ونقل الضبي (بغية، رقم ٥٨٤) ترجمة بقي من الصلة بحروفها. وهذا الكلام وارد مع مخالفات يسيرة في رسالة ابن حزم في فضل الأندلس، (انظر نفح الطيب، طبعة محيي الدين، جـ٤، ص١٦٢. وترجمة بقي في النفح، جـ٣، ص٢٧٢-٢٧٠).

(*) ابن الفرضي: علماء، رقم ٨٩٩.

القاسم عبد الرحمن، قرأ عليه جميعه بالمرية إذ كان أبو محمد قاضيًا بها»[*].

ومنهم كذلك أبو العباس أحمد بن مسعود بن محمد القرطبي الخزرجي المتوفى سنة ١٢٠٤/٦٠١، وله شرح على تفسير ابن عطية انتشر انتشارًا عظيمًا بين أهل المشرق، كما يقول ريبيرا.

(*) الضبي: بغية، رقم ١١٠٢.

obeikandl.com